بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

قد لا يصدق القراء – وأنا نفسى لا أصدق أحياناً – أن هذا الكتاب قد كتب لأول مرة – أو كتب الجزء الأساسى منه – قبل ما يقرب من خمسة وثلاثين عاما.

كتبته فى رمضان من عام ١٣٨٥، الموافق لشهر يناير من عام ١٩٦٥. وكان قد تبقى منه فصل واحد أرجأت كتابته حتى أجد له فسحة من الوقت، بعنوان «نماذج من كتب المستشرقين». فكتبت ما قبله وما بعده، وتركت له فراغا فى وسط الكتاب، حتى تتاح لى فرصة – كنت أظنها قريبة – أختار فيها نماذج مما كنت قد قرأت من كتب المستشرقين، فأعرضها وأعلق عليها.

ولكن أحداثا كثيرة وحادة، باعدت بينى وبين تلك الفرصة المرتقبة. فقد جاءت أحداث عام ١٩٦٥ التى غيبتنا عن الوجود الخارجى أكثر من ست سنوات، وغيبتنا كذلك عن الكتب والقراءة والكتابة والأوراق والأقلام والصحف والإذاعة، وكل ما يدور فى عالم الأحياء! كما غيبت أعزاء ذهبوا ضحية العسف الذى كان قائماً يومئذ، والذى كان يحيط ذوى الاتجاه الإسلامى بألوان من القهر والتعذيب لم تسمع بها الأجيال..

فلما عدنا إلى الحياة الخارجية ترددت فى إكمال الكتاب ونشره..

لقد كتبته أول مرة في وقت كنت ألحظ فيه فتنة جائحة بما يكتبه المستشرقون عن الإسلام. وكان هدفى من كتابته التصدى لهذه الفتنة الجائحة، وتعريف الشباب خاصة بحقيقة الاستشراق ودوافعه، فقد كنت قد قرأت من

كتب المستشرقين ما أكّد لى بعدهم الكامل عن روح الإنصاف، وعن روح «البحث العلمى» التى يدعونها، وكنت قد قرأت كذلك من كتابات «المثقفين» الذين يحملون أسماء إسلامية، ما أكّد لى مدي تأثرهم بأفكار المستشرقين. فما من رأى يكتبونه أو فكرة يعرضونها إلا ولها أصل فى كتابات أولئك المستشرقين.

لذلك رأيت فى وقتها أن من واجبى أن أكشف للشباب تلك الحقيقة بجانبيها: جانب المستشرقين وما يكتبون، و «المثقفين» وما ينقلون من أفكار المستشرقين.

ولكنى حين عدت إلى الكتابة مرة أخرى وجدت قدرا من التغير قد طرأ على الساحة. فمن جانبٍ أحسست كأن الفتنة بالمستشرقين قد خفت حدتها عن الوقت الذى كنت قد عزمت فيه على الكتابة فى الموضوع، ثم إن بعض الكتابات قد أخذت تظهر، تبين حقيقة المستشرقين، بعد أن كان من النادر – إن لم يكن من المستنكر – وقت بدأت الكتابة فيه أن يعرض أحد للمستشرقين بنقد! فقد كان الانبهار بما يكتبون، يجعل من يتعرض لهم بشىء من النقد، كمن ينكر معلوما من العلم بالضرورة، فيتهم بالتعصب وضيق الأفق وفقدان الروح العلمية إن لم يتهم بأشد من ذلك!

عندئذ قلت فى نفسى: إذا كانت هذه الثغرة قد سدت، فلأكتب فى موضوعات أخرى مما يشغل خاطرى، وأحس بالرغبة فى الكتابة فيه، أداءً لواجب «البيان» الذى تحتاج إليه الدعوة فى غربة الإسلام الثانية، التى أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً»[1] فكتبت «دراسات قرآنية» و «منهج التربية الإسلامية»[2] و «مذاهب فكرية معاصرة» و «واقعنا المعاصر» و «كيف نكتب التاريخ الإسلامى» وغيرها من الدراسات، وشغلت عن أمر الاستشراق والمستشرقين بعملى فى الجامعة وفى مجالات الدعوة الأخرى.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) الجزء الثانى.

ولكن ظل بعض الأصدقاء – ممن كانوا قد علموا شيئاً عن كتاب «المستشرقون والإسلام» – يطالبونني بالعودة إليه، وإتمامه ونشره، ملحّين عليّ بأن الباب لم يغلق، وأن ما صدر من كتب عن الاستشراق لا يمنع من ظهور دراسات أخرى في الموضوع، وأن لكل إنسان طريقته في الكتابة، وزاويته التي يهتم بها أكثر من غيره؛ وأنه إن كانت الفتنة بالمستشرقين قد خفت حدتها، فإن أفكارهم ما تزال تنتشر على يد «المثقفين» الذين يحملون أسماء إسلامية ويكتبون بالعربية.

لذلك عدت إلى الكتاب، وعزمت على المضيّ فيه..

والله من وراء القصد، وبه الاستعانة ومنه التوفيق ،،،

محمد قطب

openkandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للمستشرقين اهتمام قديم بالإسلام والعالم الإسلامى تمتد آثاره فى العصر الحاضر. فهم دائبون على عمل البحوث والدراسات في هذا الشأن، ولهم فى ذلك كتب ومقالات، ودوريات منتظمة ومحاضرات، إلى جانب المؤتمرات الدورية التى يقيمونها، سرية مقصورة على أنفسهم تارة، وعلنية يدعى إليها بعض الباحثين المسلمين تارة أخرى. ويتناولون فيها حاضر المسلمين بصفة خاصة، وماضيهم، ومستقبلهم المنظور، كما يتناولون الإسلام ذاته من جوانب شتى.

ويعجب كثير من المسلمين لهذا النشاط غير العادى، ويتساءلون فيما بينهم: ما الذى يدفع المستشرقين إلى هذا الاهتمام البالغ بكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، بينما هم أنفسهم – المسلمون – لا يرون أنفسهم أهلا لهذا الاهتمام كله! ولا يرون تراثهم مستحقا كل هذا الجهد! ثم يروحون يعزون هذا الاهتمام إلى أسباب غير أسبابه الحقيقية، فمن قائل: إن هذا طبع فى الغرب.. أن يتناول كل شيء بالبحث والدراسة المستفيضة من أجل المعرفة ذاتها؛ ومن قائل: إنها هواية شخصية لأولئك المستشرقين، يرضون فيها حب استطلاعهم، ويفرغون طاقاتهم. إلى آخر هذه الأسباب «الطيبة» الساذجة التى تأخذ الأمور من ظواهرها، ولا تصبر على استطلاع الهدف الكامن وراء الاستشراق والمستشرقين.

وفريق آخر يأخذه الإعجاب بهذا النشاط «العلمى» الذى يتناول من أمور المسلمين ما لا يتناولونه هم أنفسهم، وينشر من تراثهم ما كان ينبغى أن يقوموا هم بنشره وتحقيقه. ومن ثم يُكبرُ فيهم جلدهم وصبرهم ودقتهم فى البحث، فيروح يتتلمذ عليهم، فينقل عنهم، ويأخذ عنهم مفاهيم دينه.

وهؤلاء وهؤلاء ينقصهم ولا شك الوعى بحقيقة الحركة الاستشراقية وأهدافها الحقيقية ووسائلها.

ثم إن هؤلاء وهؤلاء لا يراجعون أوامر دينهم، ولا يتبعون توجيهات ربهم التى أنزلها عليهم ليرشدهم إلى حقائق الأشياء.

إن الله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً رسوله ﷺ، والأمة الإسلامية من ورائه: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [سورة البقرة: ١٢٠]. وهو قول حاسم فاصل لا يحتمل المراجعة. فهذا التقرير القاطع من العليم الخبير يؤكد أن اليهود والنصارى – وهم الفئتان اللتان يتألف منهما الغالبية العظمى من المستشرقين – لن يرضوا عن الإسلام والمسلمين قط إلا إذا اتبعوا ملتهم. ومن ثم فلا يمكن – أصلا – أن يقولوا فى الإسلام قول الحق، مهما رأوا آيات الحق ظاهرة واستيقنتها أنفسهم. أما ما يقولونه من الحقائق عن الإسلام ورسوله أحيانا فليس تجردا علميا منهم، ولا إيمانا بالحق لأنه حق – ولو آمنوا به لأسلموا[1] : – وإنما هو وسيلة للفتنة وضحها الله للمؤمنين منذ أربعة عشر قرنا ونيفا حين قال لهم: ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ..** ﴾ [آل عمران: ٧٢ – ٧٣]. فهى إذن سياسة مرسومة، لإيهام المسلمين بأنهم دعاة حق، وأنهم يؤمنون بالحق حين يرونه، فإذا كفروا «ببعض» ما يؤمن به المسلمون، أو كفروا به كله، فإنما ذلك نتيجة بحثهم المجرد عن الحق! فإذا دخل هذا الوهم نفوس المسلمين فلعلهم «يرجعون»!

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، ويقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ..** ﴾ [آل عمران: ١١٨ – ١١٩].

---

(١) أسلم بعضهم بالفعل ولكنهم قلة نادرة بين جموع المستشرقين.

وهو بيان واضح لأهدافهم، وتحذير حاسم من اتباعهم فى أى أمر من أمور الدين.

ثم إن الله يقول عن أعداء هذا الدين عامة، وهم الفئات الأربع الذين يرد ذكرهم كثيراً فى السور المدنية، والطوال منها يصفة خاصة، وهم اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون: ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ [البقرة: ٢١٧] وهى صيغة تفيد الاستمرار إلى ما شاء الله، ولا تقتصر على عصر أو فترة أو جيل..

وهذه التوجيهات كلها – ومثلها فى القرآن كثير – كانت كفيلة أن تبصر المسلمين بأهداف المستشرقين ووسائلهم، وتمسح الغشاوة عن أعين المخدوعين فيهم منهم، فيعرفوا سر اهتمامهم بالإسلام والمسلمين، ويعرفوا كيف يكون موقفهم من أعداء هذا الدين.

* * *

يقول المستشرق النمساوى «ليوبولد فايس» الذى أسلم وسمى نفسه «محمد أسد» فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «.. قد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير. إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن. ويأخذ الميل العاطفى بالتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام. ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحثٍ فى البحث العلمى، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته. إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شىء من الفتور «اعتبار الأسباب المخففة». وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين

التفتيش، تلك الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكيةلخصومها فى العصور الوسطى، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد، لكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها » [1] .

ويقول : « والواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى [2] يعملون فى البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من « الوثنيين » . غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيىء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، فى عقول الأوربيين » [3] .

ومع ذلك ففى الشرق الإسلامى « مسلمون » لا يأخذون أفكارهم عن الإسلام إلا من هؤلاء المستشرقين ! !

* * *

إن حركة الاستشراق أخطر بكثير مما تبدو « للطيبين » الذين يرون ألا خطر منها على نفوس المسلمين، مادام أن أحدا لم يتهود أو يتنصر حين قرأ ما يكتبه المستشرقون !

إن هؤلاء هم أنفسهم – دون أن يدركوا – هم فريسة للكيد الاستشراقى الماكر، أو قل بعبارة أدق : الكيد الصليبى الصهيونى الماكر، الذى أدخل فى روعهم أن الإسلام هو مجرد أن يحمل الإنسان اسما إسلاميا : محمد أو أحمد أو على . . وأن يؤدى – إذا شاء – بعض الشعائر التعبدية، ولا عليه بعد ذلك أن يكون منهج حياته كله، ومنهج تفكيره كله، مستمدا من غير الإسلام!

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الأولى ص ١٥ .

(٢) لا يمنع هذا من وجود مستشرقين يهود ! (٣) المرجع السابق ص٥٨ .

هؤلاء لم يقرأوا – ولعلهم إن قرأوا لا يدركون – ما قاله الأب زويمر فى مؤتمر المبشرين المنعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ م، حين قام بعض المنصرين يعلنون فشلهم فى مهمتهم، ويشكون من أنهم يبذلون كل ما فى وسعهم فى عملية التنصير، ثم لا يدخل فى النصرانية إلا طفل صغير خطفوه من أهله قبل أن يعلم عقيدة أهله، أو رجل مسنّ جاء من أجل المال ولا يضمنون عقيدته مع ذلك! فقام زويمر يقول لهم: «لا ينبغى أن يقنط المبشرون حين يرون نتيجة جهودهم ضعيفة. إن مهمتنا الأولى ليست هى تنصير المسلمين.. وإنما هى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفى هذا نجحنا نجاحا باهرا بكل تأكيد..»[1].

* * *

إن الصليبية العالمية والصهيونية العالمية لها أهداف محددة تجاه الإسلام، تتلخص فى محاولةالقضاء عليه بكل الوسائل التى يمكن استخدامها فى هذا السبيل. والاستشراق كان – وما يزال – إحدى هذه الوسائل المرصودة لمحاولة القضاء على الإسلام. ولذلك ترصد له الدول الصليبية الصهيونية كل الإمكانات «العلمية» والمالية والمادية.

إن الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية كلها تؤدى – وقد أدت بالفعل فى وقت من الأوقات – إلي إخضاع العالم الإسلامى للنفوذ الصليبى الصهيونى. ولكنها – وحدها – قد لا تؤدى – ولم تؤد بالفعل – إلى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وهو الضمان الوحيد لاستمرار السيطرة الصليبية الصهيونية على العالم الإسلامى، كما قال جلاد ستون رئيس الوزارة البريطانية فى مجلس العموم البريطانى عام ١٨٨٢ م – بعد الاحتلال الانجليزى لمصر – إذ أمسك بالمصحف فى يده، وقال: طالما كان المصريون متمسكين بهذا الكتاب فلن يقر لنا قرار فى تلك البلاد!!

---

(١) راجع كتاب الغارة على العالم الإسلامى. تأليف ا. شاتلييه، تعريب محب الدين الخطيب ص ٤٧ طبعة القاهرة.

والصليبية الصهيونية تعلم ذلك حق العلم. تعلم أن الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية – وحدها – لا تكفى لدوام السيطرة على العالم الإسلامى، إذا بقى أهله متمسكين بالإسلام.

ولكن جهود التنصير، ومن بعدها جهود الاستشراق – وهى مجرد امتداد لها كما قال محمد أسد – استطاعت أن تفعل كثيراً فى هذا الشأن: شأن صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفتنتهم عن مصدر قوتهم الحقيقى، فكانت بذلك أكبر سند للاستعمار الصليبى الصهيونى، وكانت هى التى جعلت الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية تؤتى ثمارها فى نهاية المطاف.

* * *

ولأن الكيد الصليبى الصهيونى ماهر وماكر، فإن كثيراً من المسلمين لا يفطنون إلى حقيقة هذا الكيد، ومدى توغله فى مشاعرهم وأفكارهم وسلوكهم الواقعى، ومدى تحويله إياهم عن حقيقة الإسلام!

ولابد من تدبر واعٍ لهذا الأمر..

تدبر واعٍ لتاريخ المستشرقين، وأسباب نشأتهم، وأهدافهم ووسائلهم، ومجموعة الأفكار التى ينثرونها كالحبائل فى طريق المسلمين لتشتيت جهودهم، وشغلهم عن التجمع تحت راية الإسلام كما أمرهم الله.

وهذا الكتاب محاولة فى هذا السبيل..

وما أزعم بطبيعة الحال أننى قرأت كل ما كتبه المستشرقون، ولا يزعم ذلك أحد من الناس!

ولكننى أعتقد مع ذلك أننى قرأت من كتبهم ومقالاتهم وبحوثهم – إما بالانجليزية وإما مترجما إلى العربية – ما يكفى لأن ألم بأهدافهم وأتعرف على وسائلهم، ومن حصيلة هذه المعرفة أقدم هذا الكتاب.

والله وحده هو الموفق لما يريد..